سر الوجود كما يراه « مارسل »

كان كيركجارد هو الداعى الأول للوجودية وتدور محاور دعوته حول الذات وتجميد نزعاتها ثم انطلاقها بعد ذلك فى انبعاث حر من كل قيد . . ثم كان للوجودية دعاة آخرون . منهم جبريل مارسيل ، وهو صاحب فلسفة خاصة ، فإذا كانت أهم مبادئ الوجودية هى الانفرادية فكل إنسان إذاً يختلف عن الآخر فى اتجاهه الوجودى مادام يرى نفسه حراً فى اختيار مذهبه ومن ثم تكون لكل إنسان فلسفته الخاصة المستمدة من تفكيره الذاتى ، وعلى هذا فإن لمارسيل فلسفته التى نادى بها عام ١٨٨٩

إن محور فلسفته الوجودية هو الجسد ، فكل إنسان تنبه إلى أول شىء فى وجوده فوجد جسده ، فالجسد الإنسانى هو الأصل الذى وجدت الذات فيه نفسها ، ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجى لتحقيق الاتجاهات الوجودية . . فأنا لا أقيس أى شىء إلا بمقدار ما يتأثر به جسدى ، فهناك شركة يتكون منها الوجود الإنسانى الجسد والذات والأحاسيس

والجسد غير مرتبط بصورة سابقة لوجوده — عمارة قائمة لا صلة لها بالمهندس الذى أقامها ولا تعترف به ولا بالتصميم الذى أقامها على صورته ورسمه ، بل على هذه العمارة أن تهندس نفسها منذ اكتشفت وجودها وعليها أن تخلق عالمها .

* * *

ومن هنا قد يسير مارسيل خطوات عن أستاذه كيركجارد نحو الصلة بالعالم الخارجى فنفهم منه أن الجسد فى تنفيذ أحاسيسه ينشأ عنه ما يسمى بالفلك الوجودى الذى يدور فيه ويتأثر به .

ونفهم منه أيضاً أن أحاسيس الوجودى تبدأ من الجسد وتتجه إلى فوق لتنطلق باستمرار متجهة إلى الأعلى متخذة لها معراجاً تصعد به نحو المطلق ، الوجودية تتركز تركيزاً تاماً فى قوة إيجابية صاعدة نحو الذات المطلقة ولكنه لا يحدد لها سلماً ترقى عليه ولا مصعداً تصعد به ، حسبها أن تنطلق متحررة من كل قيد بشرط أن تتجه إلى الأعلى دون أن تعرف بالضبط ما هو المفهوم من الاتجاه إلى الأعلى ما دام لا توجد هناك مناهج ولا خطط مرسومة ولا أهداف معينة ، ولكن المهم هو أن الوجود عنده أن يخلق الإنسان إرادته ويتجه بها إلى التعالى

على الدوام ، فإننى وجدت لأعلو ثم أعلو حتى أصل إلى الوجود المطلق .

ولك العذر إذا وجدت إطاراً يتكون من هذه الألفاظ وليس بداخل الإطار صورة واضحة المعالم .

إن مفهوم هذا الكلام أنه لون من ألوان الاتجاه إلى الله .

هكذا نفهم إذا ترجمنا الألفاظ إلى لغة المتصوفة وحينئذ يفرح رجل الدين ويهلل الفيلسوف المؤمن مارسيل .

ولكنه لا يحدد لنا ما نطمئن إليه لهذا الزعم فهو لم يرسم صورة واحدة نقتدى بها فى ذلك التعالى الوجودى ، حسب المرء أن يجتهد فى دمج وجوده بالذات المطلقة ، ولما كان كل إنسان يختلف عن سواه فى الفهم الحر الاختيارى فلن تستطيع تحديد صورة واحدة لما يعنيه بالضبط مارسيل

* * *

ومارسيل يعود إلى فكرة الفلك الوجودى فيقول إنه يعنى أن الذات تسير فى مدار الوجود شاعرة بشخصيتها منفردة بطابعها ، فلا تكون مطية أبداً للمجتمع ولا تفنى فيه فكل ذات عليها أن تذهب فى تنفيذ مواهبها بوحى إرادتها أثناء هذا الانطلاق إلى فوق دون الاندماج مع الآخرين ، فالوجودى

لا يدع نفسه ذرة تائهة فى الصحراء ، بل يعمل فى صحراء الحياة مقيماً حوله سياجاً منفذاً بقوة اختيارية مشيئته وأن هذا التفرد ضرورى ولا مجال للمساومة فيه ؛ لأن الاندماج مع الغير هروب من المسئولية التى هى إحدى المحاور الأساسية للوجودية .. لابد إذن من المسئولية الذاتية .

المسئولية الكاملة الخلاقة التى تجعل الإنسان خالق نفسه ، أى خالق اتجاهاته الوجودية ، فالوجودية تزداد وجوداً كلما ازدادت تفرداً دون نظر من الوجودى إلى ما حوله ، ومن حوله فهم مجرد آلات تعاونه أو تساعده من بعيد

* * *

ولكن الشعور بالوجودية يقتضى وجود آخرين حتى تنشأ المسئولية لأنه لو لم يوجد الغير ، لما كانت هناك صلات ولا ارتباطات أو أعمال وهى كلها ضرورة الوجود لممارسة الوجود ذاته فى اتجاهاته ، ومن هنا فإن وجود الغير ضرورى لأنه العامل المسبب لإبراز وجودها وإيجاد فرص للاختيار والمسئولية .

ومن هنا يبدو أن مارسيل يتقدم فى حرص انفرادى نحو المجتمع بعض خطوات ، فيجعل هناك صلة ضرورية بخارج الذات . . . بل هو يجعل العالم جزء من وجودنا لا يتحقق الوجود

الذاتى إلا به فأنا لا أتكلم إلا إذا كان هناك من يسمعنى ولا أنظر إلا إذا كان هناك ما يرى .

فالأشياء والناس هى آلات نمارس عن طريقها وجودنا وبذلك يبدأ نوع من الاتصال الحسى يظل يتدرج ويسمو حتى يصل إلى نوع من الاتصال العاطفى يبدو فى الحب فأنا لا يمكن أن أمارس عاطفة الحب ما لم أدخل فى وجودى العاطفى شخصاً محبوباً ثم يتدرج أكثر من ذلك إلى مشكلة الخلود .

ولعل هذا التدرج من الحس إلى العاطفة إلى الخلود هو ما يطلق عليه الانطلاق الوجودى إلى التعالى فهو يرى أن الخلود مشكلة .

ولكنه يعترف بالخلود ، فالإنسان يموت ويتحلل جسده ولكننى قد أظل أذكره كما لو كان موجوداً فهو خالد فى نفسى إن شئت استحضرت صورته وإن شئت استعدت كلامه وكأننى أسمعه وإن شئت تصورته قائماً يذهب أمامى ويجىء . . وكلنا جرب هذا الشعور من استحضار صورة عزيز مات فى مخيلتنا .

* * *

فالوجودية عند مارسيل تبدأ من الإنسان باعتباره جسداً غير مرتبط بأشياء سابقة ثم يذهب مع هذا الجسد بعد أن يقيم حوله حصناً ذاتياً ليقيم له صلات بالناس والأشياء ثم يتدرج إلى العاطفة ثم إلى الزمن الذى يقهره فى تعاليه بتخليد الصور التى يريدها .

ولو أن مارسل جعل القيم الإنسانية والفضائل أساساً يرتبط به الإنسان فى تنفيذ هذا التدرج . . إذن لمددت إليه يدى كمسلم يفهم دينه لأقول له إنى معك .

ولكنه لم يفعل

* * *

قد تكون هناك محاسن لهذه الوجودية إذا صادفت نفساً نقية ، وذلك أنها تجند القوى الذاتية لتنفيذ أغراض الذات ، فمن الخير إذن أن تكون أغراض الذات مدروسة دراسة جندت لها عقول العالم المفكرة والنظم السماوية المقدسة حتى لا تضيع هذه الجهود الذاتية المجندة لخدمة الذات فى تنفيذ اتجاهات سلبية تخدع بها النفس فى حالة عدم ارتباطها بموازين ومقاييس

* * *

ولو حدث ذلك لكان من محاسن هذه الوجودية ، اليقظة التامة لدفع كل ذرة من ذرات الوجودى الإنسانى لتنفيذ الهدف إذا كان الهدف إيجابيًا .

ولو حدث هذا لكان لها محاسن أخرى منها تنمية الشخصية الاستقلالية .

ولكن هذه المحاسن لابد أن يشترط لقيامها أن تكون الوجودية قائمة على أسس إيجابية سبق أن حددها الوجود الإنسانى باعتبارها أصلح صورة للإنسان المثالى ثم تأتى الوجودية فتجعل الذات مجندة فى سبيل تحقيق هذه الصورة المثالية وتستهدفها فى أعمالها .

* * *

القدر . . والوجودية

هل الوجودى قادر حتماً على تحقيق وجوديته . . ؟ وإذا لم يكن فما جدوى هذا العناء ؟ هل من الضرورى أن ينتهى اختيارى لعمل ما إلى النتيجة التى أرجوها ؟ إن أحداً لا يمكن أن يقطع بذلك ، فإن المرء لابد أن ينحنى للقدر وينزل إن راضياً أو راغماً على أحكامه وإذا كنت مستعداً دائماً أبداً لاحتمال المسئولية ، فليس هذا معناه وجوب تحقيق الأمر الذى يقع عليه اختيارى ، هنالك القوة التى تدعنا نعبث ونلعب فتهدم هى ما عبثنا به وما لعبنا ، وما كنا نظن أننا قادرون عليه .

فالوجودية لا يمكن أبداً أن تجعل الفعل الذى استهدفه واجب الحدوث ، إنها قد تكون منطقية لو أن للإنسان قدرة حتمية على تكييف وجوده . . أو كان قد خلق بناء على إرادته ، أما أن تكون الذات قد فرضت فرضاً ، وهى معلقة بخيط القدر ثم تزعم هذه الذات أنها حرة حرية كاملة فإن ذلك بعيد عن المنطق ،

إن القط قد يتربص لبعض الجرذان ، ثم يدعها وهى

تحت سيطرة مخالبه تلعب وتمرح ليلهو بها إلى حين ، فلو زعمت أن لها حرية المرح والعبث فإن مخالبه هى الحقيقة القائمة التى تكذب هذا الزعم . . . إن المخالب هى التى تحدد نوع ومصير الحرية التى يزعمها لنفسه الجرذ الصغير .

وليس معنى هذا أن يقف الإنسان رافعاً يديه مغمضاً عينيه مستسلماً للعاصفة وإنما عليه أن يدرك من أين تهب العاصفة ثم يحتمى منها بالحصون التى أقامها على مر الزمن . . العقل والدين . . وليس من الحق أن أزعم أن هذه الحصون تفنى وجودى وتلاشى شخصيتى لأننى لم أصنعها . . كيف أزعم هذا وأنا لم أصنع نفسى ولم يكن لى فى وجودى إرادة أو اختيار ؟

* * *

فالإنسان عاجز عن تحقيق وجوده تحقيقاً كاملا كما يشتهى حتى ولو هيئت له أسباب النجاح ذلك لأن الإرادة المنبعثة من الذات لتحقيق العمل تختلف قوة وضعفاً لأسباب لا دخل لى فى صنعها كالصحة والذكاء والوراثة والإمكانيات المختلفة التى لا سلطان لى عليها ، إن أسباباً أخرى تتداخل بالرغم منى لتشترك فى تحديد خط سيرى .

ومعنى هذا أننى لست حرًّا بالوصف الذى يتطلبه الوجودى

أن الفيلسوف « يسبرز » يقرر معى هذا المذهب من أنه من المستحيل أن تعيش ذات معتمدة اعتماداً كلياً على إرادتها فحسب وأن الذات لا تمارس خصائصها إلا فى النطاق العام .

إن هذا الوجودى الكبير قد ابتدأ من الصحراء ضالا فأبى أن يسأل عن الطريق وبعد عناء وطول جهد التقى بالناس فى بعض المنحنيات ، ولكنه لا يعترف بأن هذا الالتقاء هو الهدى أو هو من حكمة القدر ولا يندمج مع الآخرين ويسير بعد ذلك كما يلتقى الجندى بفرقته فى الجيش فيسير معها بعد أن ظل زمناً ضالا فى طريقه عنها وإنما يظل منفذاً لتعاليمه الذاتية فلا اندماج فى خطوات ولا اشتراك فى هدف وإنما علاقات عابرة قائمة على تحقيق المنفعة الذاتية دون نظر إلى نظام الجيش الذى ينتمى إليه

* * *

لقد التقى « يسبرز » الفيلسوف الوجودى مع الناس فى بعض الطريق ثم راح يشق له بينهم ممراً خاصاً على هواه ، وهو فى الواقع يهتدى بهم أثناء سيره معهم لأنه مدفوع مع المجموعة ، وهذا أمر مستحيل التحقيق وإذ سينشأ عنه كثير من الخلل والاضطراب ومعنى هذا أن ما يزعمه الوجودى عن

إمكان الاعتماد الكلى على فرض ذاتيته هو زعم غير واقعى وأنه يطلق على تصرفاته اسماً حلواً فى بعض الأسماع ولكنه لايدل على معنى صادق أو على كل المعنى المقصود

* * *

لو قلت هذ القول للوجوديين فلن يسلموا به ؛ سيلفون كعادتهم ويدورون ويقولون لك . . ان الفيلسوف « يسبرز » إذا كان قد جعل العلاقة مع الآخرين أساساً للوجود فليس معنى هذا أن الوجودية تستند إلى ما سواها وإنما هى فقط تستمد من هذا العلاقات الغيرية أحجاراً تبنى بها طريقها الذ تى أو أسباباً تبلغ بها المراد .

معنى هذا أن الوجودى لا يمكن أن يكون زوجاً أو أباً لأن اتجاهات الحياة الزوجية أو العائلية قد تتعارض مع اتجاهاته الذاتية ومن ثم فهو يعانى فراغاً فى العلاقات الروحية هذا الفراغ العجيب الذى لن يستعيض عنه الوجودى بشئ مما تمتلئ به حياة الناس ، وربما كان هذا مفتاح السر فى تقدير الألم والخطيئة ذلك أن الإنسان يجب أن يسير فإذا لم يذهب مع القافلة يميناً فإنه سيذهب شمالا والنفس كالزجاجة الفارغة إذا لم تملأ بشئ ما ملأها الهواء ، والهواء عند الوجودية هو

الألم والقلق والخطيئة وربما كان هذا انتقاماً حتمياً من الحياة ؛ من الذين ينحرفون عن طريقها الطبعى المرسوم .

* * *

ولو انقلب الناس جميعاً وجوديين لما كان هناك إنسان يهتم بما يصيب الآخر ؛ فواقع كلها فى القاع منها ما يتحرك ومنها ما يغوص فى الطين فالذى ينجح فله نجاحه والذى يفشل فليذهب إلى الجحيم ، ذلك لأن القوقعة الوجودية لا تهتم بغير ذاتها ما لم يكن هناك شىء يأتى مصادفة . . . وهى تعترف بأن الآخرين ليسوا سوى آلات ينتفع بها فى تحقيق الذات ، كالكاتب الذى يتحطم فى يده القلم فيلقى به ويتناول سواه بلا حزن . . ستنشأ من هنا للناس آلام . . . فليكن . . فإن الألم مقدس لأنه ضرورة لابد منها بل هو الحافز للإحساس بالقوة الوجودية ومن الضعف أن يستمع الوجودى إلى ما يقوله رجل الدين عن السلوان والعزاء ، إنه يسد أذنيه حتى لا تتلوث وجوديته بما قد يذهب بألمه فهو لا يريد أن يعلم بأنه . . . (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

إنه يرى أن ما يحبه وما يريده هو الخير المنطبق تمام الانطباق

على وجوديته وإلا فلا

* * *

على أن فلسفة يسبرز الوجودى لا تخلو من شىء جدير بالتفكير ويقرب أن يكون تسليماً بنظرية القضاء والقدر فهو يرى أن الله هو الكمال المطلق أو هو المعنى المضاد للفشل فإن كل شىء لا يكون قائماً إلا إذا وجد ضده فوجود الليل يقتضى وجود النهار ليتميز كل منهما عن الآخر وقس على ذلك وجود الأبيض بوجود الأسود ووجود الحياة بوجود الموت ، فوجود الفشل يدل على وجود كمال ، وبما أننا لانجد فى الدنيا كمالا مطلقاً ، فلابد إذن من أن تكون هناك فى الحياة ألوان مختلفة من الفشل ليكون هناك فى الجانب الآخر كمال مطلق هو الله .

* * *

أهداف الوجود الإنسانى

يقف طلاب الحقيقة طويلا عند العمق الكامن فى فلسفة الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر (١٩٠٠) إذ يبدو أن فلسفته الوجودية تدور حول أهداف الوجود الإنسانى أو الغاية المطلقة من الوجود ، فهو قد لا يكون وجوديًّا على طريقة الفلاسفة الوجوديين الآخرين ، فقد ذكرنا أن الفلسفة الوجودية فلسفة ذاتية تختلف باختلاف ما يراه كل إنسان ، لأن الأمر لا يدور على محاور ثابتة لا تتغير .

فالإنسان عند هيدجر خلق لتحقيق رسالة السمو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائماً وهو اتجاه مثالى تنشرح له صدور الذين يؤمنون بالله وبالعقل وبالحياة ، ولكن ليس علينا أن نتلقى هذه البداية بقرع طبول التفاؤل فهيا بنا نمشى على حذر مع هيدجر فإذا استحق أن نصفق له فعلت ذلك كمسلم فاهم لأصول دينه غير متعصب وإنما غيور على الأصول المقدسة.

* * *

إن البداية مع هيدجر مشجعة ولا شك ، فهو يرى الإنسان

ليس باعتباره جسداً موجوداً كما فعل يسبرز وإنما باعتباره المخلوق الوحيد المسئول عن الكون وعمارة الأرض والذى يمتاز عن سائر المخلوقات بأن مجال نشاطه هو فهم الطبيعة ودراسة أسرارها واستغلالها فهو وحده أى الإنسان الحاصل على شرف الوجود ، وما عداه فآلات مسخرة له . . فوجود الإنسان يتحدد من رسالته فهو إذن الكائن الوحيد الموجود وما عداه فليس وجوده أساساً .

وإذن فقد بدأنا . . بدأنا ننظر إلى الوجودية من خلال منظار واضح .

* * *

والإنسان عند هيدجر ليس مستوحداً منفرداً بذاته ، وإنما لابد له من علاقة مع الوجود البشرى العام ، فتحقيق رسالة وجوده مرتبط بذلك . فإذا انطوى ذلك الإنسان على نفسه واعتقل ذاته داخل قوقعته دون أى صلة بالغير فقد أنهى بيده وجوده . . . واختار العدم فهناك صلة ما بين وجود الإنسان كفرد وصلته بالكون كوجود عام ، أى بين الموجود والوجود ذاته وهذه الصلة تنشأ عنها التزامات

* * *

ولكنه حين يعطى الإنسان هذا الضوء ويفتح له الطريق يحذره من الطريق ومن الناس ومن الجنوح إلى الرأى العام وإلا استحال وجوده الذاتى إلى شبه وجود أو وجود مائع إياك وأن تجعل رأيك يضيع فى خضم هائل كما تضيع قطرة الماء فى المحيط .

لا تجعل نفسك صورة من صور الناس فهم يجنحون إلى لذة الكسل والثرثرة ، كن سيد نفسك وأفكارك وانأ بنفسك عن ضغط المجتمع ؛ إنك فى حرب مع العالم ، وجدت فيه بالرغم منك ... وهو يعلمك أنك تريد أن تنتصر على الظروف والزمن والطبيعة وتأخذ ما فى يد سواك فالجميع فى مقاومة تنشأ لك منها المتاعب والآلام ، فيجب أن تواجه هذه الحقيقة وأن تلقاها وجهاً لوجه وأن تعض بالنواجز على القلق الناتج من ذلك فهذا القلق ضرورى ولابد منه لإشعال حماس النفس فهو منبه الذات والمحذر لها من كل ما يريد أن يشدها إلى الفناء

* * *

والواقع أننى حين أريد أن أجرب هذه النظرية أجد أن الحياة المليئة بالقلق قد تنتهى إلى تحطيم صاحبها ، لأنها مخالفة لطبيعة الحياة نفسها فليس الوجود عدواً لى وإنما كل ما فى

الكون صديق لى يريد معاونتى فى تحقيق رسالتى الإنسانية ، والله قد خلقه وسخره لهذا وقد يكون بينى وبين الناس والوجود العام نضال أو كفاح ، ولكنه أشبه ما يكون بالمباراة الرياضية لا عداوة فيها للمتبارين ، والانتصار الرياضى هو انتصار للغالب والمغلوب لأنه نصر للهدف الرياضى ذاته والفكرة الرياضية بصفة عامة .

على هذا يمكن تحقيق النجاح والاطمئنان إلى الحياة والسير معها ومع الناس فى رضى بلا قلق ولا خوف كما يريد هيدجر ، والنظرية التى تقول بأنه على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح هى نظرية سليمة أثبت الزمن والتجارب صدقها ، وليست الراحة الإنسانية ضعفاً بشرياً ، فإن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإنما خلق ليؤدى رسالته وهو راض عن نفسه وعن الحياة بلا خوف منها .

إن هذا الاسترسال يدفعنا إلى التساؤل . . . لماذا خلقنا . . ؟

وهيدجر الفيلسوف الوجودى يجيب بأننا خلقنا لنموت . . لكى نكون فى نهاية الأمر فريسة للعدم وقد يمكن الرد على هيدجر فى هذه النقطة بأنه ما قيمة الخوف والقلق إذن ؟ إذا كانا لن يغنيا عن النهاية شيئاً . ؟

وهل حقاً أن الإنسان قد خلق لينتهى إلى العدم أم أنه خلق ليحيا ويتطور من حياة إلى حياة أفضل أن يقوم بتطوير نفسه فى هدوء حتى يلقى الله فى النهاية السعيدة لأن الإنسان يستأنف حياته الأخرى على الصورة التى مات عليها أى على الدرجة التى وصل إليها فى حياته فيبدأ الحياة الروحية من حيث انتهت الحياة الأرضية .

* * *

إن هيدجر فى رعب دائم من الموت إننا سنموت والموت شىء مخيف فيجب أن نخافه .

ولكن لماذا كان الموت مخيفاً ؟

إنه مشفق من الموت لأنه التجربة الوحيدة التى يعانيها المرء ثم يطوى على حقيقتها نفسه فلا يعود ليتحدث بها إلى الناس ويمارس ما تعلمه منها .

فإذا كان هيدجر يخاف الموت لأنه شىء مجهول والمجهول يخاف ، وإذا كان هيدجر أيضاً لا يريد أن يستمع إلى ما يقوله الله تعالى عن الموت فإنه بالمنطق لن يخرج عن أحد أمرين :

١ ــ إما أن يكون فناء مطلقاً وإذا فقد ارتاح الوجودى من ذاته التى أتعبته طويلا وعذبها وعذبته .

٢ ــ وإما أن يكون تحولا إلى عالم آخر فى رحلة من نوع جديد فيجب أن يسر الوجودى لفرصة القيام بتجربة جديدة وكلا الفرضين يجب أن يطمئن من أجلهما هيدجر فلا يخيف الناس .

* * *

على أن هيدجر المثالى فى بعض نواحيه يبدو فى نواح أخرى أكثر تزمتاً من سواه من أباطرة الوجوديين فقد تفهم أنه يقول فى نظرية له بأن الإنسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن يحققها ليصبح موجوداً وهو غير مرتبط طبعاً فى عمليات التحويل الوجودى بالعقل أو بالدين بل عليه أن يسير وحده حسب توجيهات الصاروخ الذاتى الذى يدفعه حتى يقف بالرغم منه عند المحطة المكتوب عليها لافتة باسم الموت .

* * *

وطبيعى أن هذه العملية سيلازمها الهم لأن الإنسان يسير غير مستعين لا بالله ولا بالعقل ولا بشىء آخر فهو يحمل همه على ظهره ويصعد الجبال أو يخوض البحار أو يغرق فى اليم أو تنوشه السباع وليس له أن يستغيث أو يطلب النجدة

أو المعونة لأنه لو فعل لفتح باب الغير كى يقتحم وجوده . وبينما نحن فى هذه الظلمات إذا بالحقائق البسيطة السهلة تسخر منا فإذا كان الوجود الإنسانى هو الشعلة التى أراد الله بها أن يضىء ناحية من الوجود فعلى الإنسان أن يحملها راضياً حتى إذا انتهى فى الطريق إلى المحطة النهائية ووجد هناك من يريد أن يستلم منه الشعلة ليستمر فى عمله الأرضى ثم يعود هو إلى المكان الذى انتدبه منه الله فى أول الأمر ألقى بالتحية راضياً للمتخلفين بعده على الأرض ثم انحنى لهم فى تقدير وتوارى فى عالمه بلا ضجة ولا غم ولا تعقيد للأمور .

* * *

الوجود . . واللاوجود

سارتر هو عميد الوجوديين الحالى والمسئول الأول عن كثير من اتجاهاتها الحقيقية فى هذه الأيام وهو الكاشف عن كثير من الأمور الشاذة التى عليها فلسفته .

والوجودية عنده نوعان . وجود ثابت وهو وجود الأشياء الجامدة الثابتة على ما خلقت عليه والإنسان وهو الموجود المتغير النزاع إلى تحقيق شىء ما وهذا الشىء هو شغله الشاغل باستمرار لاهثاً مجهداً خلف الانبثاقات الذاتية التى تنبثق منه وتسبقه وعليه أن يلحق بها . هذه الإرادة الذاتية المنطلقة أمامه ترتسم أمام عينيه على هيئة صورته التى يجب أن يكونها وهذه الصورة التى هو مطالب بتحقيقها لا تستقر أبداً أنها باستمرار أمام عينيه وهو يريد أن يلحق بها ويدخل فيها ويحقق بهذه النهاية ذاته .

وهو يشارك أساطين الوجوديين السابقين من أن الإنسان ليس عليه أن يستعين بالدين أو العقل أو نظريات وضعها

غيره فى تحقيق وجوده لأن ذلك يفسد هذا الوجود .

* * *

ونحن نرى أن سارتر يرمى إلى أن الأصل فى الوجود هو اللاوجود . هو الفناء . . والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أى يخرج بذاته من اللاوجود .. من الجمود .. من العدم فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الإرادى للفعل هى المحاولات اللازمة لتحقيق الوجود وليس هناك إله عليك أن تستمع لتعاليمه لأن الوجودى لا يسمع نصحاً ولا وصية ولا موعظة وإنما عليه هو بممارسة التجارب الوجودية أن يصل إلى الصفات التى تصبح علماً عليه . . . ولقد ندرك أن سارتر يزعم بأن الإنسان هو الذى خلق فكرة الله لأن الإنسان له الحرية الكاملة فى اختيار صفاته وتحقيق وجوده وهذه الحرية غالية الثمن وصعبة فى ممارستها وتكلفه هموماً ومتاعب ومسئولية فالإنسان فى طور من أطوار عجزه أراد أن يريح نفسه من أنه غير قادر على تحقيق رسالة فاعتنق فكرة وجود الله لينسب إليه أسباب فشله الذاتى وليعزى نفسه بأنه لم يستطع أداء هذا العمل لا لأنه عاجز بل لأن الله لا يريده فيغمض الإنسان عينيه أمام متاعب المسئوليات ويهز كتفيه ويستغفر ربه ويجنح إلى الراحة .

وعلى هذه الصورة يزعم سارتر أن الله غير موجود ولكن الإنسان هو الذى خلقه للأسباب التى لخصناها .

* * *

وهكذا ترى أن الإنسان حيثما اتجه مع الوجوديين لن يظفر بشىء سوى الدوران مع ألفاظ حادة ذات تعبيرات ملتوية قد يجد فيها بعض ذوى النفوس المعذبة راحة أو حافزاً لاحتمال العذاب أو مبرراً لاستمرار نوع خاص من السلوك .

إن للوجودية فى بعض حالاتها جوانب مشرقة ولكنه إشراق زائف كإشراق قطع الزجاج الملقاة تحت أشعة الشمس فى صحراء وهى فى الأعم الأغلب تهدم فى نفس الإنسان الماضى والحاضر والمستقبل فى سبيل إشعار النفس بنشوة الكبرياء وإقناع الوجودى أن الثمن الضخم الذى يتحمله يعادل هذه النشوة الذاتية المتعالية

على الوجودى أن يقف بالعصا فى طريق كل ما هو مقدس فإن هوت النفس إلى شىء من ذلك لوى عنانها فى قسوة إلى الداخل لتعاود تدريب نفسها تدريباً على الوحدة والتميز الانفرادى ثم تعاود الانطلاق إلى الخارج لتنفيذ الشحنة المغلفة بأغراض الذات « وسارتر » يسمى هذه العملية حرية وذلك لأن

الحرية جزء منا لا نستطيع التخلص منها لأنها هى الوجود فإذا تخلصنا من الحرية لم نكن فى حالة وجود وإنما نكون قد أسلمنا أنفسنا إلى العدم .

* * *

إن النفس وجدت فى هذا الكون بدون إرادة منها فكأنما هى تنتقم لنفسها بأن تنفذ ما تشاء غير مقيدة بالقوى الخالقة الموجهة كالسجين المتمرد على سجانه ، إنه سيغضب على ذلك السجان ويخالفه وسيكون من أجل ذلك خائفاً يترقب فهو فى حالة قلق مستمر وهو يقول لنفسه فليكن ، فإن هذه هى الحرية التى يمارسها داخل السجن لأن الرضوخ لأوامر السجان هى الاعتراف بالسجن هى إعدام الحرية وإفناء الوجود وتسأله لماذا لا تريد أن تحيا فى هدوء ؟ فيجيب . . هدوء ؟ إننى أريد أن أكون حراً رغم سجنى إننى أحقق وجودى الحر الذاتى والمتاعب التى أتحملها هى ثمن هذه الحرية .

* * *

حينما يجتمع اثنان لأداء عمل متشابه من الأعمال أحدهما وجودى والآخر عبد من عباد الله فإن عبد الله سيقول لقد جرب هذا الموضوع من قبل فلان أخى أو صديقى وفاز فيه

بخير كثير ثم إن طريقته متفقة مع النظم والمثل والتعديل البسيط الذى اقترحه هو كذا ليكون الأمر أكثر نفعاً فإذا نجح عبد الله هذا ازداد استبشاراً وشكر ربه وإذا فشل قال لنفسه لم يكن فى وسعى أكثر من هذا لقد بذلت جهدى ثم كانت إرادة الله .

ولكن السيد الوجودى لن يرضى بهذا الأسلوب ، سيغمض عينيه ويغوص فى أعماق ذاته يتلقى منها الإلهام ثم يجعل إرادته تتجسد وتندفع خارجة لتجره وراءها فى قوة وحماس ثم يحس قلقاً يرج كيانه لأنه فى اختياره غير مستند إلى قوة تحميه أو رأى يعضده والنجاح والفشل عنده سيان ، ذلك أن الحقيقة عنده هى الانطلاق ، هى مجرد الحركة نحو تحقيق رغبات الذات .

* * *

ويظهر أن الوجوديين يستعملون كلمة الحرية استعمالا عكسيًّا فلست أدرى أيهما أكثر حرية ؟ أذلك الذى يجد الشجاعة الكافية لتضحية . أهوائه فى سبيل الأخذ بفكرة أثبت العقل والدين صلاحيتها ؟ أم الطفل الذى يريد أن يحصل على اللعبة ويلهو بها وله حرية تحطيمها ؟

إن الإنسان خلق على صفات وأخلاق وعادات لم يصنعها هو بنفسه لكى يكون له الحق فى الادعاء أنه ينفذ أهداف

ما صنع وإنما هو يتصرف طبقاً لما أودع فيه بالرغم عنه من صفات فإذا لم يهتد بالإرادة الخالقة فى تسيير هذه الآلة الإنسانية بما علم صانعها من أسباب الخير لها كان خائناً لهذه الآلة الإنسانية التى هو أمين عليها وخائناً لوجودها لأن تحقيق وجودها الطبيعى رهن بتحقيق رسالتها التى حددها لها صانعها وفقاً للنظم التى تثبت صلاحيتها سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية .

ففهم الحرية هنا فهم غير أمين : إن السائق ليس حراً فى استعمال السيارة بطريقة قد تحطمها وإنما هو مكلف أن يسوقها فى حرية وفقاً لإمكانياتها ومدى احتمالها فى حدود التصميم الذى أوصى به المهندس والمخترع

* * *

والحب . . .

تلك العاطفة الحلوة الرقيقة التى هى أجمل ما فى الوجود الإنسانى عليها يتعارف الناس وتكون بينهم المودة وبها تتغذى الفنون ويتغنى الشعراء .

إن للوجودية فيها رأياً

ذلك أن الحب مشاركة وجدانية .

وهذه المشاركة تقتضينى أن أضحى بأشياء من أجل

الحب ذاته أو الحبيب .

ولكن الوجودية لا تريدك أن تبذل شيئاً أو تنزل عن شيء لأن ذلك إنفاق من خزينة الذات يذهب بقليل أو كثير من ثروتها الوجودية .

فالحب ليس مشاركة عاطفية عند الوجودية . . لأن المشاركة معناها أن الذات فتحت بابها لذات أخرى . وإنما الحب استمتاع فردى كل من الحبيبين يقف على شاطئ وهذا يقذف لذلك بقدر ما يعطى الآخر... أى أن الحب تبادل متعة بل هو نوع من الصراع يحاول كل طرف أن يحصل لنفسه فيه على متعة من الطرف الآخر كعملية البيع والشراء والأخذ والعطاء والبضاعة فى حدود الثمن ثم يذهب البائع والمشترى كل إلى حال سبيله فإذا كانت هذه هى نظرة الوجودية إلى أسمى ما فى الوجود وهو الحب الذى تهتز به النفس وتمتلئ وتسعد وتجد فى الفناء فيه تحقيقاً لأسمى تضحية أمكننا أن نحكم على قيمة الحياة نفسها فى نظر الوجودية .

إن كيركيجارد زعيم الوجودية الأول وقع فى الحب ولكنه حطم قلبه ولم يتزوج حتى لا يكسر جناح الحرية وآثر أن يكون وجودياً .

إن جنون الحاكم بأمر الله يمكن بهذا القياس أن يجعله زعيماً كبيراً من زعماء الوجودية ذلك أنه كان يقتل أحبابه وأصحابه حتى لا يكون رجلا ضعيفاً تأسره العاطفة فتفتح ذاته لشخصية أخرى تشاركه وجوده .

إنه يطعن عواطفه ويقف على أشلائها ناعماً بنشوة الحرية حرية الخلاص من أسر الحب والعاطفة ورباطها المقدس .

فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها إلى شيء ليس لها إرادة فى اختياره ولو كان فى هذا الشيء نعيم الحياة ولذتها العليا فالوجودية تعادى من يحاول أن يجذبها إلى نظم الحياة ويذيقها برد الراحة بينما هى تريد أن تظل تضرب على غير هدى فى صحراء نارية وتقطع اليد التى تحاول أن تجفف عرقها ، أليس الوجودى يريد أن يكون خالقاً . ؟ . والخالق لا يتخذ صاحبة ولا ولداً وليس له كفواً أحد ! !

وهكذا يتخبط « سارتر » حتى يضل وينتهى بالرد على نفسه بما لا يحوجنا إلى تعليق فيقول إن الإنسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغى فيظل هائماً وراء الوجود المثالى الذى يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه .

فليظل هكذا ما دام كذلك قد وجد .

* * *